القيم الاجتماعية في القرآن الكريم
سورة الماعون أنموذجاً

د. محمد محمود الدومي
الأستاذ المشارك في التفسير وعلوم القرآن بقسم أصول الدين
في كلية الشريعة – جامعة آل البيت – الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

غرس القرآن الكريم القيم الاجتماعية والإنسانية النبيلة في المجتمع المسلم، وربط هذه القيم بالعقيدة التي هي أصل الإيمان في الإسلام، فالمسلم الذي لا تظهر هذه القيم السامية في سلوكه عليه أن يراجع إيمانه وثوابت عقيدته.

وجاءت سورة الماعون تتساءل عن الذين اختلت عقيدتهم وكذبوا بيوم القيامة، فكان الجواب إنهم الذين يزجرون الأيتام بشدة ويحرمونهم حقوقهم، ولا يحثون غيرهم على إطعام المسكين الذي لا يجد قوتاً من أبناء مجتمعهم فضلا على أن يطعموه هم بأنفسهم، كما توعدت المنافقين بالويل والهلاك لأنهم يسهون عن صلاتهم، وإذا أدوها كانوا مرائين فيها، كما أنهم يمنعون الناس الحاجات التي لا ينبغي أن تمنع ، ولا يتعاونون مع الناس في مجتمعهم.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

لا ينكر أحد التطور الكبير الذي حدث في الحياة الحضارية المادية في القرن الأخير، حيث توصل الإنسان إلى القوانين المادية والعلمية وسخرها لتحقيق سعادته في شتى مجالات الحياة، ولكن هذا التطور بقدر ما قدم للإنسان من منافع وخيرات سبب له أزمات اجتماعية ونفسية وروحية، ذلك لأن هذه الحضارة أغفلت طبيعة الإنسان وتكوينه من روح ومادة كما أنها غضت الطرف عن الغاية من وجوده، فالإنسان ليس آلة لتحقيق المكاسب الاقتصادية والرغبات المادية فحسب بعيدا عن القيم الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية، ورغم التقدم العلمي والمادي والتقني الهائل الذي حققته البشرية في هذا الزمان فإننا لا نجد السعادة المنشودة في الحياة الاجتماعية والنفسية، ولهذا تجد الناس في تيه وتخبط يبحثون عما يسعدهم في حياتهم ويحقق لهم التوازن بين رغباتهم الروحية والمادية، ولن يجدوا ضالتهم إلا في الإسلام وكتابه العظيم المنزل من عند الله تبارك وتعالى خالق الإنسان الذي يعلم احتياجاته ورغباته وما يحقق التوازن والانسجام بين حاجاته المادية والروحية، والتاريخ يثبت ذلك من خلال النقلة النوعية التي حدثت للعرب الجاهليين الذين كانوا يتخبطون في ظلمة الوأد والرق والثأر والحمية والشح...، ولما جاء الإسلام ارتقى بهم عن كل ذلك وغرس فيهم العقيدة السليمة وشرع لهم العبادات التي تثمر الأخلاق والقيم الاجتماعية النبيلة، وبذلك كله أصبحوا قادة الدنيا مستقرة قلوبهم نيرة عقولهم.

وتتناول هذه الدراسة سورة الماعون أنموذجاً يظهر من خلاله التوجيه القرآني للإنسان بضرورة التمسك بالقيم الاجتماعية السامية على أنها ثمرة من

ثمار التربية القرآنية، إذ ربطت السورة الكريمة بين العقيدة والسلوك الاجتماعي للإنسان ربطاً مباشراً، لأن آثار العقيدة السليمة يجب أن تظهر وتتجلى في سلوك الإنسان المسلم وتعامله مع الناس وباقي المخلوقات من حوله، وإذا لم تظهر في سلوكه فكأنها ليست موجودة أو على أقل تقدير تشوبها الشوائب كالرياء وغيره من الشوائب المفسدة للعقيدة السليمة.

وسورة الماعون جاءت دعوة إلى التآزر الاجتماعي والحث على عمل الخير والمبادرة إلى كل ما من شأنه تقوية المجتمع وبنائه بناءً سليماً، من خلال تشديد النكير والوعيد على الذين يحرمون الأيتام حقوقهم، ولا يحرصون على إطعام المسكين ويمنعون الناس ماعونهم في الوقت الذي يتراءون أمام الناس ويتظاهرون بالصلاة والصلاح.

واقتضت طبيعة الدراسة أن تكون في مبحثين يحتوي كل مبحث منهما على مطلبين على النحو الآتي:

المبحث الأول: الأثر الاجتماعي للقرآن الكريم.

المطلب الأول: المجتمع العربي قبل نزول القرآن الكريم.

المطلب الثاني: أثر القرآن الكريم في المجتمع العربي.

المبحث الثاني: القيم الاجتماعية في سورة الماعون.

المطلب الأول: نظرة عامة للسورة وأهدافها.

المطلب الثاني: وقفة مع آيات سورة الماعون.

المبحث الأول

الأثر الاجتماعي للقرآن الكريم

ترك القرآن الكريم أثراً اجتماعياً كبيراً في الشعوب التي دخلت في الدين الإسلامي والشعوب المجاورة، ولتجلية هذا الأثر لا بد من توضيح صورة المجتمعات وحالها قبل نزول القرآن الكريم ودخول الناس في الإسلام، وسأخصص الحديث في هذا البحث عن المجتمع العربي دون غيره لأن القرآن الكريم نزل في البيئة العربية قبل غيرها.

المطلب الأول: المجتمع العربي قبل نزول القرآن الكريم.

الحياة الاجتماعية سنة كونية، فلا مناص للإنسان من العيش والاجتماع مع غيره من بني جنسه، فهو لا يستطيع أن يعيش وحيداً منعزلاً دون أن يتعاون مع الآخرين، وبالاحتكاك والتعاون والتفاعل المتبادل تتكون المجتمعات، والمجتمع العربي واحد من المجتمعات في هذا العالم[1]، وإذا أردنا أن نتعرف أحوال العرب وظروفهم قبل الإسلام فعلينا أن ننظر في آيات القرآن الكريم عند وصفها لذلك المجتمع بالقسوة في التعامل والظلم للفئات الضعيفة مثل الأطفال والأيتام والعبيد والنساء، في الوقت الذي يتمتع فيه الأقوياء والأسياد وأصحاب السلطة بجمع المال والتفاخر بالأولاد، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (١٧ – ٢٠: الفجر)، وكان الزنا والبغاء على أشده في بعض البيئات، والمرأة فيه لا قيمة لها تباع وتورث كما يورث المتاع، كما كانت توأد وهي طفلة حديثة الولادة خشية العار والفقر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ

١- انظر: إسماعيل علي سعد، الاتصال الإنساني في الفكر الاجتماعي، مصر، دار المعرفة الجامعية، ط ١، ٢٠٠٢م، (ص١٥-٢٦)، وانظر: جمال زكي، تنظيم وتنمية المجتمع، القاهرة، دار النهضة العربية، د.ت، ص (٩-١٣).

قُتِلَتْ ﴾ (٨-٩: التكوير)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٥٨،٥٩: النحل)[٢].

والإنسان بطبعه مجبول على الشح والاستئثار بالخير والأنانية، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (١٩-٢١: المعارج) كما أن الغنى يدفع صاحبه للطغيان، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (٦-٧: العلق) وما ذلك إلا لشدة شغفه ولهفته على ما تحبه نفسه وتشتهيه وما استقر في نفسه من الشح والأنانية، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾(١٠٠: الإسراء) فالشح في الإنسان فطري عميق، والعرب لا يخرجون عن هذه السمات الفطرية، إلا أن الإسلام غسل هذه النفوس من الشح والأنانية والقسوة وملأ قلوب أصحابها رحمة وعطاء وإيثارا، فانقلب الإنسان من الصورة السلبية المقيتة إلى صورة إيجابية معطاءة بالتوجيه وبالتشريع، فلا يكلف الإسلام الإنسان إلا ما يطيق ولا يغفل في الوقت نفسه حاجات المجتمع ومصالحه[٣].

المطلب الثاني: أثر القرآن الكريم في المجتمع العربي.

نزل القرآن الكريم لهداية الناس وليزكي نفس الإنسان ويخرجها من جهلها وشحها وضيقها، ويستنهض فيها فطرة حب الخير وفعله للآخرين، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٧٧: الحج) وقال الله تعالى مخاطباً المؤمنين حاثاً لهم على التعاون: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

٢- انظر: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، ص(٤٨-٤٩). وانظر: إسماعيل علي سعد، الاتصال الإنساني في الفكر الاجتماعي، ص(٢٢-٣١).

٣- انظر: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص (٢٦-٢٧)، وانظر: محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الكتاب، القاهرة، د.ت، ص(١١-١٤).

(٢: المائدة) وقال الله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١١٤: النساء)، نلاحظ من الآيات القرآنية السابقة وغيرها كثير في السياق ذاته أن القرآن ارتقى بالإنسان من الأنانية والشح والجهل إلى التعاون وفعل الخير والمعروف للناس منتظرا الأجر والثواب من الله تعالى.

وجاءت السنة المطهرة تعزز وتؤيد ما قرره وشرعه القرآن الكريم فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن لله عباداً اختصهم لقضاء حوائج الناس، حببهم للخير وحبب الخير إليهم، أولئك الناجون من عذاب يوم القيامة» [٤]، وعن ابن عمر أيضاً: أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أي الناس أحب إلى الله؟ وأي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد ـــ يعني مسجد المدينة ـــ شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام)[٥]

هذه النصوص وغيرها دفعت العرب الذين أسلموا إلى التعاون الاجتماعي والمبادرة في تقديم الخير للناس؛ ففي مسألة الإنفاق والتكافل الاجتماعي تدرجت التربية القرآنية للمجتمع العربي فلم تجعل الزكاة فريضة خلال المرحلة الأولى من

٤- رواه الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط،،الناشر: دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، رقم الحديث (٥١٦٢)

٥- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبدا لمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل،الطبعة الثانية، ١٤٠٤ – ١٩٨٣،، رقم الحديث (١٣٦٤٦)، ورواه الشهاب، محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، مسند الشهاب، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ -١٩٨٦م، رقم الحديث (١٣٠٦).

الوحي في الفترة المكية، إلا أنه جرى التأكيد على المؤمنين الأوائل أن مد يد العون لمساعدة المحتاج ذو أهمية في التعبير عن الخلق القويم.

ويمكن لنا أن نلحظ عناية القرآن بالإنفاق من خلال الآيات المتضمنة الحث على الإنفاق مترافقة منذ البداية مع التوجيهات الأساسية للدين ومرتبطة بها، وقد تنوعت التعبيرات القرآنية في تلك الفترة، شاملة الحث على رعاية ذوي القربى والفقراء، وبالأخص اليتيم والمسكين، حيث تمثل مساعدة هذه الشريحة الاجتماعية دليل حرص المؤمن على القيام بواجب التكافل الاجتماعي، ففي بدايات الوحي المكي تذكر سورة القلم، قصة أصحاب البستان الذين اتفقوا على حرمان المساكين من حصتهم المعتادة عند الحصاد، فكان عقابهم أن أحرق الله بستانهم[٦]، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾(١٧-٢٥: القلم).

وأما سورة المدثر وهي أيضا من السور التي نزلت مبكرا فتبين أن عدم إطعام المسكين سبب للعذاب الأخروي، قال الله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾(٣٩-٤٤: المدثر)، وهذا المعنى تؤكده مرة أخرى سورة الماعون التي نحن بصدد الحديث عنها، قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾(١-٣: الماعون).

سورة الإسراء أيضا توجه المسلم إلى مجموعة من الضوابط التشريعية والأخلاقية منها قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا

٦- انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٩، ص١٣١.

﴾ (٢٦: الإسراء)، فالآية الكريمة تؤكد على أن الإنفاق على المحتاجين ليس هبة ولا تفضلا من المنفق، بل هو حق للمسكين في المال، قال الله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾(١٩: الذاريات)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾(٢٤-٢٥: المعارج)، ومن المعلوم أن الزكاة فرضت في العهد المدني وهذه الآيات مكية و لعل المراد بالحق المعلوم ما أوجبوه على أنفسهم من دفع جزء من أموالهم للمحتاجين، على سبيل التقرب إلى الله تعالى وشكره على نعمه عن إخلاص وطيب خاطر، ووصفه بأنه ﴿حَقٌّ﴾ للإشارة إلى أنهم لصفاء أنفسهم قد جعلوا السائل والمحروم، كأنه شريك لهم فى أموالهم، وكأن ما يعطونه له إنما هو بمثابة الحق الثابت عندهم له[٧].

وإذا كان الأمر كذلك في العهد المكي وفي المراحل الأولى لانتقال المجتمع العربي الجاهلي إلى بوتقة الإسلام، فإننا لا نعجب إذا قدم مسلمو المدينة الأنصار ما يملكون من مال ومتاع وماعون مع شدة الحاجة إليه لإخوانهم المهاجرين الذين أصبحوا جزءا من مجتمع المدينة الجديد، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(٩: الحشر).

كما أن هؤلاء الناس لا يقدمون العون أو يطعمون الطعام لقاء تكريم دنيوي أو مكافأة عاجلة بل يقدمون كل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾(٨-٩: الإنسان)، فهم يبادرون إلى إطعام الفقراء والمساكين والأيتام وإن كان هذا الطعام حبيبا إلى النفس، لكنهم يتسامون ويترفعون على غريزة الشح والأنانية، فهم لا يخلطون الأجر العظيم الذي يرتقبونه من الله تعالى بأي عطاء دنيوي، ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ ﴾ نجد في هذه الآية إشارة في غاية الأهمية، وهي خلو نفسية الأبرار من حالة العجب

٧- انظر: سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ص٥٣٤.

والرياء، فإنهم يرتجون (وجه الله) أي العمل الخالص من الرياء.

ومن خلال هذه التشريعات تجذرت القيم السامية في نفس المسلم وتعمقت في المجتمع المسلم، وتحقق في عهده صلى الله عليه وسلم أرقى تطبيق لمبادئ العدالة والمساواة، وبلغ التكافل الاجتماعي حداً يصعب تصوره من أهل منطقة كانت إلى سنوات قليلة قبل الدعوة مرتعاً للسلب والنهب والغزو والتعدي والأنانية المفرطة، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، خلال فترة قصيرة إلى مجتمع وصف الله تعالى أهله بأنهم ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١١٠: آل عمران)[٨].

كما نجد أن العبادات الإسلامية أيضا ذات طابع اجتماعي وإنساني ففي الصلاة يلتقي أبناء المجتمع في الحي الواحد في المسجد ليقيموا هذه الشعيرة، بل إن المسلم يقرأ في كل ركعة من صلاته في جماعة أو منفردا قول الله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾(٥،٦: الفاتحة) بلفظ الجمع مع أنه واحد ليضع نفسه دائما مع جماعة المسلمين[٩]، كما أن الصلاة تهذب شخصية الإنسان وتنهاه عن الفحشاء والمنكر قال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾(٤٥: العنكبوت).

ويتجلى ارتباط الصوم بالقيم السامية والأخلاق الفاضلة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١٨٣: البقرة) فالصوم عبادة يتحسس من خلالها المسلم آلام الآخرين وحاجاتهم ومعاناتهم، فيكون أكثر استعداداً للعمل بنفسه والتعاون مع الآخرين في المجتمع لتنمية هذا الإحساس ونشره بين فئات المسلمين.

٨- انظر: محمد البهي، الإسلام في حياة المسلم، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٥، ١٩٧٧م،(ص ٢٢-٣٣)، وانظر: قباني، مروان، القيم الاجتماعية في سورة المدثر، بيروت، دار الحرية للنشر، ٢٠٠١ (ص٢٤٩-٢٦١).

٩- انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج١، ص١٣٧.

والزكاة فرضها الله تعالى على الأغنياء للفقراء ليتحقق التعاون والتكافل بين أبناء المجتمع ، ولو استأثر الأغنياء بالأموال وضنوا بها على الفقراء والمعوزين لامتلأت نفوس هؤلاء بالحقد والحسد وسلكوا طرقا غير مشروعة لسلب هذا المال، فيعيش المجتمع في صراع وخوف وهلع ، ولكن عند أدائها فإنها تطيب نفوس الفقراء وأصحاب الحاجة بما يقدم لهم الأغنياء من أموالهم عن طيب نفس[١٠].

وفي فريضة الحج يجتمع المسلمون في مكان واحد ووقت واحد وأيام محددة لتتأكد الأخوة الإسلامية ويتساوى أبناء المجتمع الإسلامي في كل شيء حتى في زيهم وقت الإحرام، فلا رفث ولا فسوق ولا خلاف ولا جدال، قال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١٩٧: البقرة)[١١].

ولا تظهر أهمية العبادات في الإسلام إلا بما تخلفه من آثار في المجتمع ، فإذا لم يتخلق المسلم بأخلاق الصلاة فينتهي عن الفحشاء والمنكر فكأنه لم يصل، جاء في الحديث الشريف عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلا بُعْدًا)[١٢]، ومن لم يرتق بلسانه وجوارحه عن اللغو وأذى الآخرين فلا داعي لصومه، فقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة

١٠- سيد قطب، العدالة الاجتماعية، (ص ٥٣، ٥٤).

١١- انظر: البهي، الإسلام في حياة المسلم، ص(٦٨- ٨٤). وانظر:أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، لجنة من الأساتذة، جامعة الإمارات العربية، قسم الدراسات الإسلامية، ط ١٩٩١م ص(٤٤-٤٥).

١٢- رواه الطبراني، المعجم الكبير، حديث رقم(١٠٨٦٣)، ذكره الشيخ الألباني في سلسلته الضعيفة، ١ / ٥٤.

في أن يدع طعامه وشرابه)[١٣]، كما تكفل الله تعالى لمن كان حجه خاليا من الجدال والفسوق، وإيذاء الآخرين بمحو ذنوبه فجاء في الحديث الشريف عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) [١٤]

وبناء على هذه النصوص وغيرها لا تكمل العبادة إلا إذا تجلى أثرها في سلوك المسلم الاجتماعي، فالدين الإسلامي منهج متكامل تتعاون عباداته وشعائره وتكاليفه الفردية والاجتماعية لتحقيق الخير والنفع للبشرية جمعاء.

المبحث الثاني

القيم الاجتماعية في سورة الماعون

حملت سورة الماعون على قصرها قيماً اجتماعية سامية من شأنها أن توجد التوازن الاجتماعي بين أطياف المجتمع المختلفة، وتحثهم على التعاون والتكافل الاجتماعي.

المطلب الأول: نظرة عامة للسورة وأهدافها

سورة الماعون جاءت دعوة إلى التآزر الاجتماعي والحث على عمل الخير والمبادرة إلى كل ما من شأنه تقوية المجتمع وبنائه بناء سليماً، فالكف عن القسوة في معاملة اليتيم، والابتعاد عن الشح، والحض والمبادرة إلى تقديم المساعدة للمساكين والمعوزين وإطعامهم، وعدم منع الماعون عن الآخرين، كل ذلك من دلائل حسن الإيمان بيوم الدين، وعكس ذلك من زجر اليتيم وعدم مساعدة المساكين ومنع الماعون عن الناس والجيران من علامات المكذبين بيوم الدين،

١٣- رواه البخاري، صحيح البخاري، بَاب مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فِي الصَّوْمِ، رقم الحديث (١٩٠٣)

١٤- رواه البخاري، صحيح البخاري، باب مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، رقم الحديث (١٧٢٤)

لأن الإيمان بالله واليوم الآخر ليس مجرد شعور داخلي، أو مجرد كلمات تقال باللسان، إذ لابد أن يصدق ذلك سلوك وممارسات، وفي هذا السياق جاء في السنة المطهرة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به) [١٥]، وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن)، قيل ومن يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)[١٦]، فليس العبرة إذن في تحديد شخصية الإنسان هي القول باللسان إنما بالفعل والسلوك والتعامل مع الآخرين، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٨:البقرة).

كما تعالج سورة الماعون حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلاً كاملاً، فالإسلام ليس دين مظاهر وطقوس، ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر، ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع المسلم إلى العمل الصالح، وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى، كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة، يؤدي منها الإنسان ما يشاء، ويدع منها ما يشاء، إنما هو منهج متكامل، تتعاون عباداته وشعائره، وتكاليفه الفردية والاجتماعية، حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود كلها على البشر، غاية تتطهر معها القلوب، وتصلح الحياة، ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء، وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد، ولقد يقول الإنسان بلسانه: إنه مسلم وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه، وقد يصلي، وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ويظل بعيداً عنها لأن لهذه الحقيقة

١٥- رواه الطبراني، المعجم الكبير –حديث رقم (٧٥١)
١٦- رواه البخاري، صحيح البخاري، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم (٥٦٧٠)

علامات تدل على وجودها وتحققها، وما لم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان، ومهما تعبد الإنسان! فحقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها لكي تحقق ذاتها في عمل صالح، فإذا لم يظهر ذلك العمل فهذا دليل على عدم وجودها أصلاً، وهذا ما تقرره سورة الماعون نصا[١٧].

المطلب الثاني: وقفة مع آيات سورة الماعون.

ولبيان ما تحمله آيات سورة الماعون من القيم الاجتماعية لا بد من دراستها دراسة تحليلية، وتنزيل هذه الآيات على الواقع الاجتماعي الذي يسود في أيامنا في هذا الزمان، لنتمكن من الإفادة من توجيهات السورة الكريمة، وإحداث التغيير الاجتماعي المنشود، على النحو الآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾

١٧- سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الخامسة والعشرون سنة ١٩٩٦م، ج٦، ص٣٩٨٤.

تنقسم آيات السورة الكريمة إلى قسمين[١٨]، القسم الأول: وهي الآيات الثلاث الأولى التي تتسائل عن الذي يكذب بيوم الدين وتذكر صفاته، والقسم الثاني: وهي الآيات الأربع الأخيرة التي تتناول مثالاً من المكذبين بيوم الدين.

القسم الأول: قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾(الماعون: ١-٣)

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ استفهامٌ أريدَ به تشويقُ السامع إلى معرفة مَنْ سيقَ لَهُ الكلامُ، والتعجيبُ منْهُ، والفاءُ في قوله تعالَى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ جوابُ شرط محذوف على أنَّ ذلكَ مُبتدأٌ والموصولُ خبرُهُ، والمَعْنى هَلْ عرفتَ الذي يكذبُ بالجزاءِ أو بالإسلام إنْ لَمْ تعرفْهُ أو إنْ أردتَ أنْ تعرفَهُ فهُوَ الذي يدفعُ اليتيمَ عن حقه بشدة وغلظة وجفوة كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣][١٩]، فالآيات تذكر الممارسات والقيم والأخلاق المنافية للدين، لأن التكذيب بيوم الدين لا يتوقف عند مجرد القول كما قال الكافرون:

١٨- هناك من قال أنها مكية وهناك من قال أنها مدنية «و هي مكية في قول الأكثرية، وروي ذلك عن ابن عباس، انظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج٢٤ ص٦٢٩. وقال القرطبي عن قتادة: هي مدنية، انظر: القرطبي، محمد بن أحمد،الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الخامسة،١٩٩٦م، ج٢٠،ص٢٦٩، وفي الإتقان: نزل ثلاث أولها بمكة أي الى قوله << المسكين >> وبقيتها نزلت بالمدينة، أي بناء على أن قوله << فويل للمصلين >> الى آخر السورة أريد به المنافقون وقاله هبة الله الضرير وهو مروي عن ابن عباس ولكن الرواية الأصح عن ابن عباس انها مكية، انظر تفسير ابن كثير، ج٤، ص٤٩٣، وانظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تعليق مصطفى البغا، بيروت، دار ابن كثير، ط الأولى، ج٣، ص١٨٩. والضرير هو: هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي أبو القاسم البغدادي المفسر، كان من احفظ الناس لتفسير القرآن، كانت له حلقة في جامع المنصور توفي سنة ٤١٠ه، انظر: الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية، ج١٤، ص ٧٠. والقول الاخير هو الأظهر، انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، دار التونسية للنشر والتوزيع ، جزء٢٠ ص ٢٧٨، وانظر: الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق محمد أحمد وعمر عبد السلام، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى، سنة٢٠٠٠م، ج٢٠، ص٦٥٥.

١٩- انظر: الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط الثانية، سنة٢٠٠١م، ج٤، ص٨٠٩.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾(٢٩: الأنعام) بل يتعداه إلى الممارسات اللاإنسانية من القسوة والغلظة وفظاظة السلوك مع الأيتام والضعفاء من أبناء المجتمع ، والسلبية في عدم الحض على إطعام المساكين والمعوزين، وهذا الوصف يشعر القارئ والسامع من الآية الأولى في السورة الكريمة بخطورة عدم القيام بالواجبات الاجتماعية، وأنه يقود إلى الكفر أو النفاق الذي يجاري الكفر في النتيجة، وأنه لو صدق بالدين حقاً، ولو استقرت حقيقة الإيمان في قلبه ما كان ليدفع اليتيم بقسوة وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين[٢٠].

واليتيم من الناس هو المنفرد عن الأب لأن نفقته عليه لا على الأم، ولأن الأب هو المعين والمعيل لأبنائه والذائد عنهم، وفي البهائم اليتيم هو المنفرد عن الأم لأن اللبن والأطعمة منها[٢١]،

والمسكين هو الذي يكون في نهاية الفقر قد ظهر عليه السكون للحاجة وسوء الحال وهو الذي لا يجد شيئاً[٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾ فيه وجهان أحدهما: أنه لا يحض نفسه على طعام المسكين، وإضافة الطعام إلى المسكين تدل على أن ذلك الطعام حق للمسكين، فكأنه منع المسكين مما هو حقه، وذلك يدل على نهاية بخله وقساوة قلبه وخساسة طبعه والثاني: لا يحض غيره على إطعام ذلك المسكين بسبب أنه لا يجد في ذلك الفعل ثواباً، والحاصل أنه تعالى جعل علم التكذيب بالقيامة الإقدام على إيذاء الضعيف ومنع المعروف، يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لما

٢٠- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٩٨٥

٢١- انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة، ط الأولى،١٩٩٢م، كتاب الياء ص ٥٥٠، وانظر: الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص٢٥٤.

٢٢- انظر: الراغب، المفردات، كتاب السين، ص٢٣٦ وانظر: ابو الهلال العسكري، الفروق اللغوية، بيروت، دار الكتب العربية، ط٣، ١٩٨٦م، ج١، ص٦٢.

صدر عنه ذلك[٢٣].

جاءت الأفعال في الآيات الكريمة ﴿يكذب﴾، و ﴿يدُعّ﴾، و ﴿يَحُضّ﴾ بصيغة المضارع لإفادة تكرر ذلك منه وتجدده؛ أي إن هذه الأفعال تصدر عنه بشكل متكرر مرة بعد مرة حتى غدت سجية وطبعاً لا تفارق صاحبها، كما أن صيغة الفعل المضارع ترسم الصورة المنفرة لذلك الدع الواقع على اليتيم وعدم الحض على إطعام المسكين، والإشارة إلى الذي يكذب بالدين باسم الإشارة لتمييزه أكملَ تمييز حتى يتبصر السامع فيه وفي صفته، أو لتنزيله منزلة الظاهر الواضح بحيث يشار إليه[٢٤].

لقد ربط القرآن الكريم هذه الأفعال والسلوكيات الاجتماعية بيوم الدين وهذا إيذان بأن الإيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة حتى يصير ذلك لها خلقاً وطبعا إذا شبت عليه، فزكت وانساقت إلى الخير بدون كلفة ولا احتياج إلى آمر ولا إلى مخافة ممن يقيم عليها العقوبات.

القسم الثاني: قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾.

يعني بذلك المنافقين لا يصلونها سراً لأنهم لا يعتقدون وجوبها، ويصلونها علانية رياء وقال تعالى في وصفهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(١٤٢: النساء) وقيل: ساه عنها لا يبالي صلى أو لم يصل، وقيل لا يرجون لها ثواباً إن صلوا ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، وقيل غافلون عنها ويتهاونون بها، والمؤمن قد يسهو في

٢٣- انظر: الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، تحقيق مجموعة من العلماء، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م، ج١٧، ص٢٢٧.

٢٤- انظر: السابق، ج١٧، ص٢٢٨، وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص٢٨٩

صلاته والفرق بين السهوين أن سهو المنافق هو أن لا يتذكرها، والمؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال، وجبره بسجود السهو فظهر الفرق بين السّهوين[٢٥].

فمن هم هؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون! إنهم (الذين يراءون ويمنعون الماعون) إنهم أولئك الذين يصلون ولكنهم لا يقيمون الصلاة، الذين يؤدون حركات الصلاة وينطقون بأدعيتها، ولكن قلوبهم لا تعيش معها ولا تعيش بها، وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات وتسبيحات، إنهم يصلون رياء للناس لا إخلاصا لله، ومن ثم هم غافلون عن صلاتهم لم يقيموها، والمطلوب هو إقامة الصلاة لا مجرد أدائها، وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها، ومن هنا لا تنشئ الصلاة آثارها في نفوس هؤلاء المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، فهم يمنعون الماعون؛ يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم في البشرية، يمنعون الماعون عن عباد الله، ولو كانوا يقيمون الصلاة حقا لله ما منعوا العون عن عباده، فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند الله[٢٦].

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴾، ومعنى المفاعلة في المراآة أن المرائي يري الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به، واجتناب الرياء صعب إلا على من راض نفسه وحملها على الإخلاص، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الأسود) [٢٧]، وفي معنى ﴿الماعون﴾ أقوال: فأكثر المفسرين على أنه

٢٥- انظر: الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم، لباب التأويل في معاني التنزيل، القاهرة، المكتبة التجارية، د.ت، ٦ / ٣١٢ وانظر: النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق يوسف بديوي ومحيي الدين ديب، بيروت، دار الكلم الطيب، ط الأولى، ١٩٩٨م، ج ٤، ص٥٤.

٢٦- انظر: سيد قطب، الظلال، ج٦، ص٣٩٨٥

٢٧- أخرجه الحاكم النيسابوري، المستدرك، باب تفسير سورة آل عمران، رقم الحديث (٣١٤٨)، والمراد بالمسح الأسود: الحجر الأسود أو الصخرة السوداء، انظر: الملا على القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج١٥، ص٢٥٤.

اسم جامع لما لا يمنع في العادة ويسأله الفقير والغني في أغلب الأحوال، ولا ينسب سائله إلى لؤم بل ينسب مانعه إلى اللؤم والبخل كالفأس والقدر والدلو والمقدحة[٢٨] والغربال والقدوم وغيرها مما يعين الناس في شؤونهم، ويدخل فيه الماء والملح والنار لما روي في الحديث الشريف (ثلاثة لا يحل منعها الماء والنار والملح)[٢٩] ومن ذلك أن يلتمس جارك الخبز في تنورك أو أن يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم. [٣٠]

والسورة من بدايتها إلى نهايتها تقرر أن على المؤمن سليم العقيدة أن يسلك مع الأيتام والمساكين والمحتاجين سلوكاً يتماشى مع عقيدته، ومن ظهر على سلوكه عكس تلك القيم السامية النبيلة عليه أن يتلمس عقيدته وإيمانه في قلبه، إذ إنه على هذه الحال لن يكون أقل من مراء في عبادته وأعماله وهذا في ميزان الله تعالى يستحق العقوبة والعذاب، فقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به

٢٨- الفأس للأرض، والقدر للطعام، والدلو للماء، والمقدحة لإشعال النار، والغربال لتنقية الحبوب، والقدوم لتقطيع زوائد الشجر والخشب.

٢٩- أخرجه أحمد في المسند، رقم الحديث (١٥٩٤٧)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (٥٢٨) وفي الأوسط برقم (٣٤٩).

٣٠- انظر: النيسابوري، حسن بن محمد، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، القاهرة، المكتبة الحديثة، ط٢، سنة ١٩٧٨م، ٧ / ٣٨٦

فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار)[٣١]

والسورة في آياتها الأخيرة تفضح المتظاهرين بالصلاح، والمتشدقين بالتدين فتصب عليهم الويل والهلاك والشقاء الأبدي، لأنهم إن صلوا كانت صلاتهم رياء يريدون بها أن يقنعوا الذين يرونهم بأنهم من المصلين المحافظين على شعائر الدين، فإن لم يرهم أحد فهم غافلون عن الصلاة مضيعون لها، ثم يبين الله لنا أن الدليل على خرابهم النفسي وظلامهم الباطني أنك لا تجد لصلاتهم أثرا في حياتهم الاجتماعية، بل الآثار تدل على فساد قلوبهم، لأنهم يمنعون خيرهم عن المحتاجين إلى معونتهم ومساعدتهم ولا يقومون نحوهم بما يجب على صاحب العقيدة الإسلامية أن يقوم به من المساعدة والإعانة لإخوانه في العقيدة والدين والإنسانية، أي رباط أقوى من هذا الرباط بين العقيدة السليمة والواجبات الاجتماعية المشروعة ؟ وفي أي مذهب من مذاهب التشريعات الأرضية جعلت الرحمة الاجتماعية والتعاون الإنساني، والحرص على نفع الآخرين أساسا يبني عليه تقويم الإنسان وجزاؤه ؟ وإنه لذنب عظيم أن تبيت الأمة وتصبح وقد ملئت من شبع بطونها، وتفنن في أنواع الطعام والشراب مترفوها وأغنياؤها، وفي الأمة الإسلامية مسكين تلتهب أمعاؤه من شدة الجوع وطوله، ويتيم ضائع لا يجد من يرعاه ويرحمه، وفقير يلملم ثوبه الممزق يستر به عورته، وأرملة فقدت عائلها فصارت تتغذى بدموعها، وتكتسي بهمومها، وتنظر بعينين زائغتين لعلها تجد إنسانا تهزه إنسانيته فيرعاها، أليس الجزاء من جنس العمل ؟ أليس هؤلاء الذين يموتون من شدة الشبع وإنفاق الأموال ببذخ على شهواتهم بينما البطون من حولهم تتلوى، والأجساد تتعرى، والبؤس يخيم على طائفة من الناس، هم

٣١- أخرجه مسلم في صحيحه، باب من قاتل للرياء، رقم الحديث (١٩٠٥).

إخوانهم في العقيدة وفي الإنسانية، أليسوا يستحقون هذا الجزاء الإلهي العادل ؟ إنهم أشقوا الناس بشحهم وبخلهم فأشقاهم الله وما ظلمهم الله شيئا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وكما تدين تدان إنها روعة القرآن وهو يرفع من شأن الواجبات الاجتماعية، ويجعل رتبتها تلي رتبة الإيمان، وكل ذلك الشقاء الاجتماعي حدث لأن الإيمان قد غاب وأبعد عن خط الإصلاح. [٣٢]

واذا نظرنا إلى حقيقة ما يريده الله من العباد، حين يبعث إليهم برسالاته ليؤمنوا به وليعبدوه، فهو لا يريد منهم شيئا لذاته سبحانه لأنه الغني، إنما يريد صلاحهم هم أنفسهم، يريد الخير لهم، ويريد طهارة قلوبهم ويريد سعادة حياتهم.. يريد لهم حياة رفيعة قائمة على الشعور النظيف، والتكافل الجميل، والأريحية الكريمة والحب والإخاء ونظافة القلب والسلوك[٣٣].

فعلى الناس في هذا الزمان وكل زمان أن يتنبهوا إلى ذلك ويكرسوا هذه القيم الاجتماعية القرآنية في سلوكياتهم، ومما لا يخفى على كثير من الناس أن كثيرا مما تعانيه المجتمعات الإسلامية في هذا الزمان من ضنك حياة وتنافر في العلاقات الاجتماعية مرده إلى عدم امتثال الناس للقيم الاجتماعية السليمة في حياتهم، فعليهم إن أرادوا أن تسعد حياتهم في الدارين وتأمن مجتمعاتهم أن يجسدوا قيم الإسلام الاجتماعية في شأنهم كله، خاصة فيما يتعلق بضعفاء المجتمع من الأيتام والمساكين والمحتاجين وغيرهم، لأن هؤلاء الضعفاء إن لم نتعامل معهم التعامل الأمثل فنرعاهم ونمد لهم يد العون والمساعدة ونؤهلهم ليكونوا لبنات سليمة في البناء الاجتماعي سرعان ما ينقلبون إلى معاول هدم وتدمير لمجتمعاتهم، وأول من يكتوي بنيرانهم الأغنياء والأثرياء الذين زجروهم وأداروا لهم ظهورهم، فجاءت سورة الماعون لتكريس قيم التعاون بين أبناء المجتمع وكفالة الأيتام

٣٢- انظر: شلتوت، محمود، تفسير القرآن الكريم، القاهرة دار الشروق، ط١٢، ١٩٨٦م، ص٤١٩.
٣٣- انظر: سيد قطب، الظلال، ج ٦ / ص٣٩٨٦.

وحسن التعامل معهم وتأهيلهم وإطعام المساكين ورعايتهم، كل ذلك من شأنه أن يؤدي الى استقرار المجتمع وإلى الارتقاء بالنفس البشرية والعيش بسلام وهدوء، بعيداً عن الأحقاد التي من شأنها أن تؤدي إلى تفتيت الترابط الاجتماعي وجعل المجتمع هشاً ومفككاً، ويصرفهم في الوقت نفسه إلى التعاون والبناء والتعمير، واستثمار وتأهيل الطاقات البشرية في المجتمع الإسلامي وتوجيه جهوده وطاقاته نحو الأهداف الكبيرة والتحديات الخطيرة.

الخاتمة

يكتنز القرآن الكريم بين ثنايا آياته الكريمة الكثير من القيم الاجتماعية السامية، القادرة على أن تمنح هذه الأمة مقوّمات الصمود والرقي، وتساعدها على اجتياز مختلف التحديات التي تواجه مسيرتها، أيّاً كانت ميادين هذه التحديات وطبيعتها، وألقينا الضوء في الصفحات السابقة على القيم الاجتماعية التي تضمنتها سورة من قصار السور القرآنية (سورة الماعون)، وقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

أولاً: تقرر سورة الماعون الارتباط الوثيق بين العقيدة والسلوك الاجتماعي في الدين الإسلامي، فالذي يدعي الإيمان بالله واليوم الآخر لابد أن تظهر ثمرات إيمانه على جوارحه، ومن خلال سلوكه الاجتماعي على صورة قيم نبيلة يتصرف وفقها مع من هم حوله من أهل بيته وأسرته وجيرانه وإخوانه في العقيدة والإنسانية.

ثانياً: كما تقرر السورة العظيمة في مضمونها ومعانيها المحدودة في آياتها وجملها أن من ظهر على سلوكه عكس تلك القيم السامية النبيلة عليه أن يتلمس عقيدته وإيمانه في قلبه، إذ إنه على هذه الحال لن يكون أقل من مراء في عبادته وأعماله وهذا في ميزان الله تعالى يستحق العقوبة والعذاب.

ثالثاً: عنيت سورة الماعون بتكريس القيم الاجتماعية وتفعيلها بين المسلمين الأمر الذي من شأنه إذابة الفوارق الطبقية بين أبناء المجتمع العربي والإسلامي على ضوء الاعتبارات السائدة، مما يكسبه قدراً كبيراً من الفعالية في خدمة المجتمعات الإسلامية والإنسانية، هذه القيم التي تعكس الخصوصية الذاتية والهوية الحضارية لمجتمعاتنا.

رابعاً: الإسهام في تعميق المعرفة العلمية والتطبيقية المنظمة لمبدأ التعاون

بين أبناء المجتمع العربي والإسلامي، وتجديد الوعي به وبأهميته لتحقيق البناء الحضاري والاستقرار الاجتماعي.

خامساً: سورة الماعون تناولت مصلين بالويل، لأنهم لم يقيموا الصلاة حقاً، إنما أدوا حركات لا روح فيها، ولم يتجردوا لله فيها إنما أدوها رياء، ولم تترك الصلاة أثرها في قلوبهم وأعمالهم فهي إذن هباء، بل هي إذن معصية تنتظر سوء الجزاء، إذ الأصل أن تظهر آثار العبادات في سلوك المسلمين!

التوصيات:

إن تطبيق مبدأ التعاون والحث على رعاية اليتيم وإطعام المسكين والمواظبة عليه، من شأنه أن يغرس في نفوس المسلمين حب هذا المبدأ وتطبيقه في حياتهم فيسود الحب والود في المجتمع الإسلامي والإنساني، فينالوا بذلك سعادة الدنيا في حياة بعيدةً عن الأمراض البدنية والنفسية التي يسببها الحقد والحسد الناشئان عن سوء معاملة اليتيم وزجره وازدراء المسكين وعدم مد يد العون له، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ينالون رضا الله تعالى وسعادة الآخرة، لتصبح هذه القيم والممارسات ديدناً وطابعاً يتخلق به الجميع وتنعم به البشرية.

المصادر والمراجع

١- أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق شعيب الارنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٨م.

٢- إسماعيل علي سعد، الاتصال الإنساني في الفكر الاجتماعي، مصر، دار المعرفة الجامعية، ط ١، ٢٠٠٢م.

٣- الآلوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق محمد أحمد وعمر عبد السلام، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى، سنة ٢٠٠٠م.

٤- البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، الرياض، مكتبة الإيمان، سنة ١٩٩٣م.

٥- البغدادي، الخطيب، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م.

٦- البهي، محمد، الإسلام في حياة المسلم، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٥، ١٩٧٧م.

٧- الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

٨- جمال زكي، تنظيم وتنمية المجتمع، القاهرة، دار النهضة العربية، د.ت.

٩- الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم، لباب التأويل في معاني التنزيل، القاهرة، المكتبة التجارية، د.ت.

١٠- الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، تحقيق مجموعة من العلماء – دار احياء

التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م.

١١-الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة، ط الأولى،١٩٩٢م.

١٢-الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط الثانية، سنة٢٠٠١م.

١٣-أبو زهرة، محمد، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الكتاب، القاهرة، د.ت.

١٤-سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الخامسة والعشرون، سنة ١٩٩٦م.

١٥-سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

١٦-إسماعيل علي سعد، الاتصال الإنساني في الفكر الاجتماعي، القاهرة، دار العرب للنشر، ١٩٨٧م.

١٧-شلتوت، محمود، تفسير القرآن الكريم، القاهرة دار الشروق، ط١٢، سنة١٩٨٦م.

١٨-الشهاب، محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، مسند الشهاب، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ه -١٩٨٦م.

١٩-الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق طارق ابن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة،سنة ١٤١٥ه.

٢٠-الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبدا لمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ – ١٩٨٣م.

٢١-الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٢٢-ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، طبعة سنة ١٩٨٤م.

٢٣-قباني، مروان، القيم الاجتماعية في سورة المدثر، بيروت، دار الحرية للنشر، ٢٠٠١ م.

٢٤-القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الخامسة،١٩٩٦م.

٢٥-السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تعليق مصطفى البغا، بيروت، دار ابن كثير، ط الأولى، ١٩٨٧م.

٢٦-لجنة من الأساتذة، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، جامعة الإمارات العربية، قسم الدراسات الإسلامية، ط ١٩٩١م ص(٤٤-٤٥).

٢٧-مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق مجموعة من العلماء، دار الخير، بيروت، ط الثالثة، سنة ١٩٩٢م.

٢٨-النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق يوسف بديوي ومحيي الدين ديب، بيروت، دار الكلم الطيب، ط الأولى،

١٩٩٨م.

٢٩-النيسابوري، الحاكم، المستدرك على الصحيحين، بيروت، دار المعرفة، سنة ١٩٨٧م.

٣٠-النيسابوري، حسن بن محمد، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، القاهرة، المكتبة الحديثة، ط٢، سنة ١٩٧٨م.

٣١-أبو الهلال العسكري، الفروق اللغوية، بيروت، دار الكتب العربية، ط٣، سنة ١٩٨٢م.

Abstract

Social values in the Holy Quran
Surah Al-Ma'un as a model

Dr. Muhamed Mahmoud Al Doumy

The Holy Quran inculcated noble and human social values in the Muslim community, and linked these values with the creed, which is the basis of faith in Islam, therefore the Muslim who does not show these values in his behavior He should review the fundamentals of his faith.

Al-Ma›un surah (chapter) came wondering about those who have faulted in their creed and denied the Day of Resurrection. The answer was that they who misbehave the orphans severely depriving them of their rights, and urge others not to feed the poor in our society instead of feeding themselves orphans , This surah also promises the hypocrites the hypocrites with grief and loss for neglecting their prayers, and if they offered the prayer they offer it with hypocrites, and they were preventing people needs that they should not be prevented people from their needs , and not cooperating with other people in their community.